قيام دولة المماليك البرجية ومميزاتها

أولاً: أصول دولة المماليك البرجية، وبداية ظهورهم:

المماليك البرجية أو الجراكسة يعتبرون مع الروس أهل مدائن عامرة، وجبال ذات أشجار، ولهم أغنام وزروع.

كان موطنهم الأصلي هو مدينة سراي التابعة لقاعدة خوارزم، وكانوا يعيشون تحت إمرة ملك سراي في حالة مشحونة بالخوف والارتياب، فإن داروه وهادوه كفّ عنهم، وإلّا غزاهم وحصرهم، وقد قتلت عساكره منهم خلائق، وسبت نساءهم وأولادهم، وجلبتهم رقيقا إلى الأقطار، وكان الرَّقيقُ الجراكسة كثيرين في الأسواقِ في ذلك الحين؛ بسببِ كثرةِ السَّبي منهم، مِمَّا أدَّى إلى انخفاضِ أسعارِهم، إلى جانبِ ما يتَّصفون به من جمالِ الشَّكلِ والقوة والشجاعة، فأكثر المنصور قلاون من شرائهم، وجعلهم في أبراج القلعة، وسماهم البرجية، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة[1].



وقد جعل المنصور نوّابه فى البلدان من مماليكه، وهم الذين غيروا ملابس الدولة، وقد عُرِفوا بالبرجية تمييزًا لهم عن المماليكِ الأتراك الذين أُسكِنوا في قلعةِ الروضة وعرفوا بالبحرية[2].

ويقول المقريزي: «وَبَلغت عدَّة مماليكه – أي قلاوون – اثْنَا عشر ألف مَمْلُوك، وَقيل سَبْعَة آلَاف وَهُوَ

---

(١) تقي الدين المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ) ج ٣ ص ٤٢٠.

(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٧ / ٣٣٠).

الصَّحِيح. تَأمر مِنْهُم كثير، وتسلطنت جمَاعَة. وَكَانَ قد أفرد من مماليكة ثَلَاث آلَاف وَسَبْعمائة من الآص والجركش، وجعلهم فِي أبراج القلعة وَسَمَّاهُمْ البرجية»(١).

وسار الأشرفُ خليل بن قلاوون على نهجِ أبيه في الاستكثارِ من الجراكسة، وألزَمَهم بالنِّظامِ والطَّاعة، ولما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة ليلاً، وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب رتب عسكرية ومنهم الأمراء والقادة واستطاعوا أن يتسلموا السلطة ويحكموا البلاد(٢).

وكان هؤلاءِ البرجية من عواملِ استمرارِ الحكم في أسرة قلاوون فترةً طويلة، وقد أدوا دورًا في الانتقامِ من قتلةِ الأشرف خليل، وتولية أخيه النَّاصرِ محمَّد برغم أنَّه كان صبيًّا في الثانيةِ عشرة.

ونتيجةً لضعفِ بيت قلاوون وتزايدِ نفوذ الجراكسة، أخذ هؤلاء الجراكسة يعملون لحسابِ أنفسِهم، فسيطروا على النَّاصرِ محمَّد وضيَّقوا عليه، حتَّى اضطروه إلى التنازلِ عن السَّلطنةِ، واعتلى كبيرُهم بيبرس الجاشنكير مقعدَ السلطنة، بعد سنةٍ واحدة، فنكل بالجراكسة، وقلَّل من شرائِهم، فتضاءل نفوذهم وضعفت قوتهم.

أُتيحت الفرصةُ للجراكسةِ ليستعيدوا نفوذَهم عقبَ وفاةِ النَّاصرِ محمَّدٍ وتولي عددٍ من أبنائه وأحفادِه الصِّغار، ولكنَّهم وجدوا منافسةً قوية من المماليك الأتراك، وتأرجحتِ السُّلطةُ بين الفريقين، ترجح كفة كلٍّ منهما حينًا، حتَّى ظهرَ فيهم الأميرُ برقوق الذي نجحَ في الاستئثارِ بالحكم، وأسَّس دولةَ المماليك البرجية.

ثانيا: قيام دولة المماليك البرجية على يد الملك الظاهر برقوق، ونبذة عنه:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص: أخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكيّ وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، فيعرف ببرقوق العثمانيّ. فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر، فسار منهم برقوق إلى الكرك، فأقام في عدّة منهم مسجونا بها عدّة سنين، ثم أفرج عنه وعمن كان معه، فمضوا إلى دمشق وخدموا عند الأمير منجك نائب الشام حتى طلب الأشرف اليلبغاوية، فقدم برقوق في جملتهم واستقرّ في خدمة ولدي السلطان عليّ وحاجي مع من استقرّ من خشداشيته، فعرفوا باليلبغاوية إلى أن خرج السلطان إلى الحج، فثاروا بعد سفره وسلطنوا ابنه عليا، وحكم في الدولة منهم الأمير قرطاي الشهابيّ، فثار عليه خشداشية أينبك البدريّ، فأخرجه إلى الشام وقام بعده بتدبير الدولة، وخرج إلى الشام فثارت عليه اليلبغاوية وفيهم برقوق، وقد صار من جملة الأمراء، فعاد قبل وصوله ببلبيس، ثم قبض عليه،

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك (٢ / ٢١٨).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، لـ محمود شاكر، ج/٧ ص/ ٧١.

وقام بتدبير الدولة غير واحد في أيام يسيرة، فركب برقوق في يوم الأحد ثالث عشري ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة، وقت الظهيرة، في طائفة من خشداشيته وهجم على باب السلسلة وقبض على الأمير يلبغا الناصريّ، وهو القائم بتدبير الدولة، وملك الإصطبل وما زال به حتى خلع الصالح حاجي وتسلطن في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة وقت الظهر، فغير العوائد وأفنى رجال الدولة، واستكثر من جلب الجراكسة إلى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصريّ، وهو يومئذ نائب حلب، وسار إليه ففرّ من قلعة الجبل في ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين، وملك الناصريّ القلعة وأعاد الصالح حاجي ولقبه بالملك المنصور، وقبض على برقوق وبعثه إلى الكرك فسجنه بها، فثار الأمير منطاش على الناصري وقبض عليه وسجنه بالإسكندرية، وخرج يريد محاربة برقوق وقد خرج من سجن الكرك، وسار إلى دمشق في عسكر، فحاربه برقوق على شقجب ظاهر دمشق وملك ما معه من الخزائن، وأخذ الخليفة والسلطان حاجي والقضاة وسار إلى مصر، فقدمها يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين[(١)].

وقد تحدث عنه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة شارحا ابتداء توليته وقيام دولة المماليك البرجية على يده فقال:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثمانى اليلبغاوى الجاركسىّ القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثانى من الجراكسة، إن كان الملك المظفر بيبرس الجشنكير چاركسيا، وإن كان بيبرس تركى الجنس فبرقوق هذا هو الأوّل من ملوك الچراكسة، وهو الأصحّ وبه نقول.

جلس على تخت الملك في وقت الظّهر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة الموافق له آخر يوم هاتور وسادس تشرين الثانى، بعد أن اجتمع الخليفة المتوكّل على الله أبو عبد الله مُحَمَّد والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدّين عمر البلقينى وخطب الخليفة المتوكّل على الله خطبة بليغة. ثم بايعه على السلطنة وقلّده أمور المملكة ثم بايعه من بعده القضاة والأمراء.

ثم أفيض على برقوق خلعة السلطنة، وهي خلعة سوداء خليفتيّة على العادة، وأشار السّراج البلقينى أن يكون لقبه «الملك الظاهر» فإنه وقت الظّهيرة والظّهور وقد ظهر هذا الأمر بعد أن كان خافيا، فتلقّب بالملك الظاهر وركب فرس النّوبة من الحرّاقة من المقعد الذي بالإسطبل السلطانىّ من باب السّلسلة. والقبّة

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣ / ٤٢٠).

والطّير على رأسه، وطلع من باب السّر إلى القصر الأبلق، وأمطرت السماء عند ركوبه بأبّهة السلطنة، فتفاءل الناس بيمن سلطنته ومشت الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل ودخل القصر المذكور وجلس على تخت الملك. وكان طالع جلوسه على تخت الملك برج الحوت والشمس في القوس متصلة بالقمر تثليثا والقمر بالأسد متّصل بالمشترى تثليثا وزحل بالثّور راجعا والمشترى بالحمل متصل بعطارد من تسديس والمرّيخ بالجوزاء في شرفه والزّهراء بالعقرب وعطارد بالقوس. ودقّت البشائر بقلعة الجبل عند ركوبه ثم زيّنت القاهرة ومصر ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق.

ولما جلس على تخت الملك قبّلت الأمراء الأرض بين يديه وخلع على الخليفة على العادة.

ثم كتب بذلك إلى الأعمال وخرجت الأمراء لتحليف النّوّاب بالبلاد الشامية ثم أمر الملك الظاهر في السلطنة وثبتت قواعد ملكه(١).

وقد بدأ منذ ذلك الحينِ حكمُ طائفةِ المماليك الجراكسة التي امتدَّتْ أربعًا وثلاثين ومائة سنة، وتقلَّد السَّلطنةَ منهم خمسةٌ وعشرون سلطانًا، عدا اثنين من أصلٍ رومي؛ هما: خشقدم وتمريغا.

بدأ الظَّاهرُ برقوق عهدَه باسترضاء المماليكِ الأتراك، حتَّى استتبَّ له الحكمُ، ثم بدأ في تقديمِ الجراكسة عليهم وإيثارِهم بالمناصب والإقطاعات دونهم، وكان من نتيجةِ هذه السِّياسة أنْ تآمر عليه الأتراكُ مع الخليفةِ العباسي في مصر المتوكل على الله، ثُمَّ خروج مدنِ الشَّام وأمرائها عن طاعتِه، وانضمَّ إليهم بعضُ المماليك الموجودين بالقاهرة، وتمكَّنوا من تنصيبِ أمير حاجي بن الأشرف شعبان سلطانًا، ونفي برقوق إلى حصنِ الكرك بعد ستِّ سنواتٍ من حكمِه.

وسيطر على الأمورِ بعضُ أمراءِ التُّرك، وعلى رأسِهم يلبغا النَّاصري ومنطاش، وما لبث الصِّراعُ أن دبَّ بينهما مما هيأ الفرصةَ لبرقوق ليجمعَ أنصارَه ويستولي على حكم الشَّام ثم مصر، وفرح به عامَّةُ أهلِها وخاصتهم، وخرجوا لاستقبالِه وفرشوا له الحريرَ في الطُّرقِ، وجدَّدوا له البيعةَ في القلعةِ بعد أقل من سنةٍ من عزلِه، وتمكَّن من التخلُّصِ من معظمِ أعدائه ومناوئيه، وقضى على ثورةِ العربان في مصر والشَّام.

واستبدّ بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوّال سنة إحدى وثمانمائة، فكانت مدّته أتابكا وسلطانا إحدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما، خلع فيها ثمانية أشهر وتسعة أيام. وقام من بعده ابنه(٢).

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١١ / ٢٢٢).

(٢) المرجع السابق (٣ / ٤٢١).



مسجد السلطان برقوق بالقاهرة 786-788 هجرية الموافق 1384-1386م. يقع هذا المسجد بشارع المعز لدين الله بين المدرسة الكاملية ومسجد الناصر محمد

وقد حكم المماليك الجراكسة مصر والشام والحجاز مدة تزيد على مائة وإحدى وثلاثين سنة، من العام ٧٩٢ حتى ٩٢٣هـ، وقد تعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطانًا، ويلاحظ أن السلطان كان يسلم الأمر ويحكم مدةً ثم يعهد لابنه من بعده وغالبًا ما يكون صغيرًا فيكون عليه وصيًا أو نائبًا عنه أو مُدّبرًا لأمور المملكة -وهو من المماليك أيضًا- ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذلك لم تكن هناك أسرة تولت السلطنة إلا الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج سبع سنوات ثم خُلِع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبدالعزيز مدة ثلاثة أشهر ثم أُعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أُخرى..

كما أنه يلاحظ في آخر خمسة سلاطين أن نتيجة القتل هي السائدة، فقد خُلِع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقتل جامبلاط قبل مرور سنة من تسلمه السلطنة رغم أنه جديد أيضًا.

ولما عُرِضَ أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفًا من القتل رغم أن سنه كانت تزيد على الستين.. ولم يتسلم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه ولكنه قُتِل على يد العثمانيين بعد أن حكم سبع عشرة عامًا.

وكانت عاقبة خلفه طومان باي مثله إذا قتله العثمانيون بعد معركة الريدانية عام ٩٢٣هـ ودخلوا القاهرة وأزالوا المماليك من السلطنة وتنازل لهم العباسيون عن الخلافة[١].

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، لـ محمود شاكر، ج/٧ ص/ ٧٢-٧٣.

وانتقلت بذلك أنظار العالم الإسلامي إلى استانبول التي غدت مركزًا للخلافة وتحولت عن القاهرة التي أصبحت مدينة عادية كغيرها من حواضر أمصار العالم الإسلامي، ودرجت مع مراكز الخلافة السابقة مثل بغداد ودمشق.

وإذا كان السلطان الظاهر برقوق قد تسلم للمرة الأولى مدة سبع سنوات من العام ٧٨٥هـ حتى ٧٩١هـ ثم قبض عليه وسُجِن بالكرك، وأعيد السلطان المنصور حاجي لمدة سبعة أشهر.. ثم رجع الظاهر برقوق إلى السلطنة.. فإن مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى لم يعدها صاحب الموسوعة ضمن حكم المماليك الجراكسة؛ لأن حكمه قد حدث فيه انقطاع وإنما بدأ تدوين أيامهم بعودة الظاهر برقوق للسلطنة في المرة الثانية حيث استمر حكم السلطنة دون انقطاع حتى انطوت أيامهم[١].

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، لـ محمود شاكر، ج/٧ ص/ ٧٣.

مميزات دولة المماليك البرجية:

أولاً: مواجهة التتار:

كان تيمور لنك ملكُ التتار قد اتخذَ من مسقطِ رأسه سمرقند عاصمةً له، واتجه إلى التوسُّعِ شرقًا وغربًا يحمل معه الدَّمار والقتل والدِّماء، فاستولى على بلادِ ما وراء النَّهر وخراسان وطبرستان، وخرَّبَ مدينةَ الرها، واستولى على بغداد فأكثرَ فيها القتلَ والتَّدميرَ.

ولم يجد حكَّامُ هذه المناطقِ مَنْ يلوذون به سوى المماليك، فلجأ إليهم أحمدُ بن أويس سلطانُ بغدادَ فأحسنَ إليه السُّلطان برقوق وأكرمَه، وكان أحمدُ بن أويس من أصلٍ مغولي ثم استعرب أجدادُه، وآل إليهم حكمُ العراق، ثُمَّ فرَّ أمام جيوش تيمور لنك.

ووصل تيمور إلى مشارفِ الشَّام، وطمع في الاستيلاء عليها، وأرسل كتابًا شديدَ اللهجةِ يحملُ كثيرًا من التهديد إلى السُّلطان برقوق، فقتل السُّلطانُ رسلَه واستعدَّ لحربِه، ولكن تيمور لنك شغل عنه بحروبِه في الجبهاتِ الأخرى وبخاصةٍ الهند.

وأمدَّ السُّلطانُ برقوق بنَ أويس بالجند والعتاد حتَّى مكَّنه من استردادِ ملكه بعد عامين، وجعله نائبًا عنه، وبذلك أصبحتْ بغدادُ من الناحية السياسية تابعةً لمصر وخاضعة لسلطة المماليك.

أزعجت هذه الأنباءُ تيمور لنك فأسرعَ بالعودةِ من الهند، وفي هذه الأثناءِ تُوفي السُّلطانُ برقوق وتولَّى ابنُه فرج، وأرسل تيمور إنذارًا للمماليك بتسليمِ حلب، فقاوموه ولكنَّه هزمهم، واقتحم حلبَ فخرَّبَها، وفزعت لذلك دمشقُ والقاهرة، وفرَّ كثيرٌ من النَّاس منهما خوفًا وهلعًا، ثم ازدادتْ الأمورُ سوءًا بدخول تيمور لنك دمشقَ ونهب أموالها ونقل عمَّالها وصنَّاعها المهرة إلى بلادِه سمرقند.

وأمام هذه الهزائمِ اضطرَّ السُّلطانُ الصغير فرج بن برقوق إلى قبولِ الصُّلح، ثم ما لبث تيمور أنْ تُوفي، وتنازع أبناؤُه وكفى اللهُ المؤمنين قتالَهم[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٧ / ٧٢٧).

ثانيًا: فتح جزيرة قبرص:

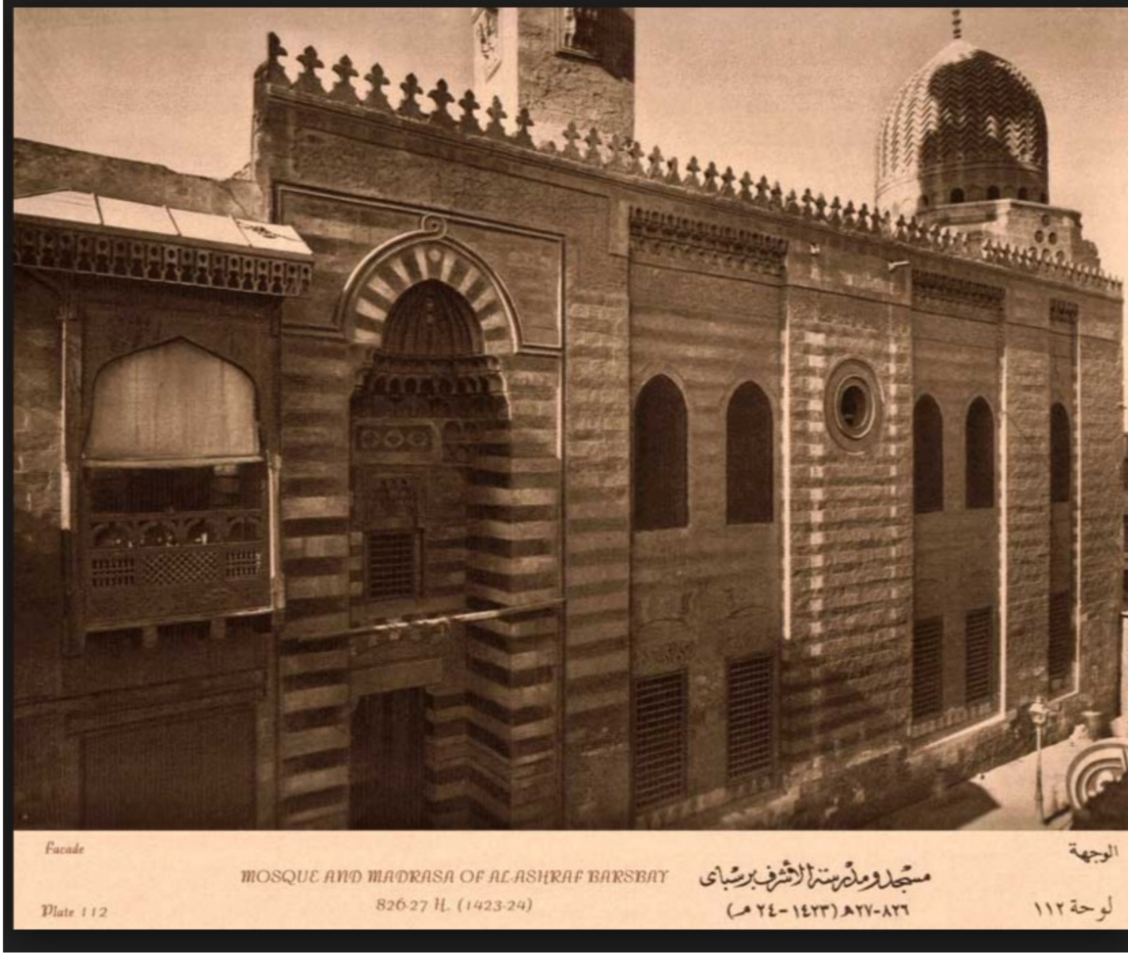
كانت قبرص بحكمِ موقعها القريب من بلاد الشَّام إحدى قواعدِ الصليبيين ومراكزِ إمدادهم الهامَّة، فلمَّا تمكَّن المسلمون من تطهيرِ بلاد الشَّام من الصليبيين أصبحت قبرصُ منطلقًا لعملياتِ القرصنةِ والتخريب ضدَّ بلاد المسلمين هي وجزيرة رودس مركز طائفة الإسبتارية، وأصبحتْ تجارةُ المسلمين مهددةً، ومعنى هذا انهيار اقتصادِ المسلمين وافتقارهم وضعفهم، مما يسمحُ للصليبيين بالتفوقِ عليهم ومعاودة غزو أراضيهم.

ولذلك عزم السُّلطانُ الأشرف برسباي على غزوِ هذه الجزيرة، ووجَّه إليها ثلاثَ حملاتٍ بحرية قوية، وكانت أُولاها غارات استطلاعية استكشافية، نجحتْ في إلحاقِ الهزيمة بالقبارصة، وأحرقتْ ما في سواحلِهم من سفنِ القراصنة، وعادتْ بالنَّصرِ والغنائم، وكانت الحملةُ الثانية أكثرَ قوة، فقد توغَّلتْ داخلَ قبرص، واستولتْ على بعضِ قِلاعها وأسرت كثيرًا من جنودِها، وكانت الثالثةُ أقوى الحملاتِ وأعظمها فقد استولى المسلمون على ميناءِ ليماسول، وهزموا جموعَ القبارصة وأسروا ملكَهم" جانوس "وفتحوا عاصمتَها نيقوسيا.

وعاد جندُ الله بالأسرى والملك الذَّليل، وعمتِ الأفراحُ والزينات أنحاءَ القاهرة، وأصبحتْ قبرص ولايةً مملوكية، وقَبِلَ السُّلطان برسباي الإفراجَ عن جانوس وإعادته إلى مملكتِه بشرطِ أن يكونَ تابعًا له ويحكم باسمه، وأن يلتزمَ بدفعِ الجزية، وتحقَّقَ بذلك الأمنُ والهدوء للسَّواحلِ الشَّامية والمصرية، ولتجارةِ المسلمين في البحر المتوسط إلى حدٍّ كبير[1].

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي ٦٦/٧، ٧٧-٨٠.



ثالثًا: غزو ردوس:

وبقيت رودسُ شوكةً في جنب المسلمين تؤدِّي دورَها العدواني ضدَّ الموانئ والسُّفنِ الإسلامية، حتَّى تولَّى السُّلطان جقمق ، فاحتذى ما فعلَه برسباي في قبرص، فأرسلَ ثلاثَ حملاتٍ إلى رودس.

وكانتُ الحملةُ الأولى استكشافية محدودة القوة؛ خرجت من ميناء دمياط دون أنْ تحقِّقَ عنصرَ المفاجأة فاستعدَّ لها فرسانُ رودس الإسبتارية بأساطيلِهم، ووقع قتالٌ شديد على سواحلِ ردوس أبلى فيه المماليكُ بلاءً حسنًا، وقتلوا وغنموا وسبوا وقُتِل منهم اثنا عشر رجلاً وعادوا إلى دمياط.

وكانت الحملةُ الثانية بقيادةِ الأمير إينال العلائي أكثر نجاحًا، فتمكَّنتْ من تدميرِ بعض القِلاع والحصون، واضطرت إلى العودةِ قبل أن تدهمَها عواصفُ الشِّتاء، وقال المشاركون فيها: لو كنَّا جمعًا لأخذنا رودس.

كان هذا القولُ حافزًا للسلطان جقمق، فاستكثرَ من السُّفنِ والجند، وأعدَّ كثيرًا من المراكب في دار الصناعة في بولاق، وخرج الجيشُ المملوكي ومعه كثيرٌ من المتطوِّعةِ وحاصروا جزيرةَ رودس، ولكنَّها صمدتْ بقوةٍ بفضل استعدادِ أهلِها وما تلقَّوْه من مساعداتٍ وإمدادات من الدول الصليبية، وعلم المماليكُ أنَّ رودس غير قبرص، فاكتفوا بفرضِ الصُّلح عليهم وتعهَّد الإسبتارية بعدمِ الاعتداء على السُّفن والتجارات الإسلامية(١).

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ج ١٥ – ٨٤٢ – ٨٥٦.